

تأصيل الدرس اللساني النصي العربي
في فكر تمام حسان
من خلال كتابه (اللغة معناها ومبناها)

حمزة حسين عبدالله حمزه

الجامعة العراقية: الجامعة المستنصرية

جامعة الاسكندرية - مصر

الملخص باللغة العربية

Abstract

Through we follow the views dr. Tammam Hassan, it seems to us that he has paid both sides of consistency and coherence (foundries and docking) in the Arabic text of great importance, trying to stand on privacy which is different without a doubt for the rest of the texts in other languages, and reflected what he had done that he tried to detect forms of linkage in the Arabic text, also tried to detect the moral relations in the space of this text meticulously, glimpsed deepen in the Arab understanding, and sense aesthetically, and although he reported what he reached the Western linguistics of action, but merely to suit the Arabic text and added to things he drew From the privacy of this text, to be trying this important base open new horizons for Arab scholars in the field of text linguistics.

من خلال تتبعنا للآراء التي قدمها الدكتور تمام حسان، يبدو لنا أنه قد أولى جانبي الاتساق والانسجام (السبك والالتحام) في النص العربي أهمية كبيرة، محاولاً الوقوف على خصوصيته والذي يختلف دون شك عن بقية النصوص في اللغات الأخرى، ويتجلى ما قام به أنه حاول الكشف عن أشكال الربط في النص العربي، كما حاول الكشف عن العلاقات المعنوية في فضاء هذا النص بدقة متناهية، نلمح تعمقه في فهم العربي، وإحساسه بجماليتها، ورغم أنه أفاد بما وصلت إليه اللسانيات الغربية من إجراءات، إلا أنه اكتفى بما يناسب النص العربي وأضاف إليها أموراً استمدتها من خصوصية هذا النص، لتكون محاولته هذه قاعدة مهمة تفتح آفاقاً جديدة للدارسين العربي في مجال اللسانيات النصية.

التعريف بالدكتور تمام حسان (رحمه الله):

ولد الدكتور تمام حسان عمر سنة ١٩١٨ بالكرك بك محافظة قنا، حفظ القرآن الكريم وجوده ثم التحق بمعهد القاهرة الديني الأزهرى عام ١٩٣٥، ثم التحق بمدرسة دار العلوم العليا عام ١٩٣٩، عُين مُعلِّمًا للغة العربية بمدرسة النقراشي النموذجية ١٩٤٥، وأُرسل في بعثة دراسية إلى جامعة لندن عام ١٩٤٦ كان لها عظيم الأثر في نقله للنظريات اللغوية الحديثة إلى العالم العربي والإسلامي وتطبيقها على دراسة اللغة العربية، حيث تلمذ لأهم اللغويين الغربيين مثل العالم البريطاني «فيرث» صاحب نظرية السياق، وكان أستاذه المباشر، وكانت أطروحته لنيل درجة الماجستير أول معالم مشروعه اللغوي في تطبيق المناهج الغربية في دراسة الصوتيات على بعض اللهجات العربية، فنال الماجستير في علم اللغة عن دراسته الصوتية لهجة أهل الكرك، مسقط رأسه، أما أطروحته لنيل درجة الدكتوراه في علم اللغة عام ١٩٥٢ عن لهجة أهل عدن، فقد أعاد فيها نهج سيرة علماء اللغة العربية الأوائل، حيث أمضى ستة أشهر في عدن يجمع ويدرس لهجة أهلها كما كان يفعل اللغويون القدامى في دراساتهم للغات البوادي والقبائل.

وعُين مُدرِّسًا بكلية دار العلوم جامعة القاهرة عام ١٩٥٢، وأستاذًا مساعدًا عام ١٩٥٩، فأستاذًا لكرسي النحو والصرف عام ١٩٦٤ ثم رئيسًا للقسم، ووكيلًا للكلية، وانتدب حسان مستشارًا ثقافيًا بسفارة الجمهورية العربية المتحدة في نيجيريا عام ١٩٦١، وأُعيير لجامعة الخرطوم السودانية عام ١٩٦٧، حيث أنشأ قسمًا للدراسات اللغوية، وتولى رئاسته، وتولى عمادة كلية دار العلوم عام ١٩٧٢، بالإضافة إلى أمانة اللجنة الدائمة للغة العربية بالمجلس الأعلى للجامعات، وأسس الجمعية اللغوية المصرية عام ١٩٧٢، وأُعيير إلى جامعة محمد الخامس بالمغرب في الفترة من ١٩٧٣ إلى ١٩٧٩، وانتخب عضوًا بمجمع اللغة العربية عام ١٩٨٠، ثم

عمل بجامعة أم القرى، حيث أنشأ قسمًا جديدًا يُسمى قسم التخصص اللغوي والتربوي لتخريج مُعلمي اللغة العربية لغير الناطقين بها.

عدّ الدكتور تمام حسان أول عالم لغوي في العالم يُدرس المعجم باعتباره نظامًا لغويًا مُتكاملًا تربطه علاقات محددة وليس مجموعة مفردات أو كلمات كما كان المستقر عالميًا، إذ نبه إلى فكرة النظام اللغوي للمعجم وأن هناك كلمات تفرض الكلمات التي تستعمل معها، فهناك أفعال لا بد لها من فاعل وأخرى لا بد أن يكون فاعلها عاقلًا.

وهو أول عالم لغوي عربي يخالف البصريين والكوفيين في دراسة الاشتقاق حين اقترح «فاء الكلمة وعينها ولامها» كأصل للاشتقاق في حين كان أصل الاشتقاق عند البصرة «المصدر»، وأصله عند الكوفة «الفعل الماضي» .

وهو أول من أعاد تقسيم الكلام العربي على أساس المبنى والمعنى، رافضًا التقسيم الثلاثي (اسم- فعل- حرف)، وجعل التقسيم سباعيًا (اسم، فعل، صفة، ظرف، ضمير، خالفة، حرف) بحسب السلوك النحوي الخاص بكل قسم.

وكان أول من فرق بين الزمن النحوي والزمن الصرفي، فقال بالزمن الصرفي الذي هو وظيفة الصيغة المفردة من دون جملة (ماض، مضارع، أمر) والزمن النحوي الذي يختلف عنه وقد يخالفه، مثلما الحال في قوله تعالى: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ} (البينة- ١) فهو زمن مضارع صرفيًا لكنه ماض نحويًا.

ويُعد الدكتور تمام لغويًا فريدًا، حيث تمكن من التراث اللغوي تمكّن القدماء من النحاة العظام، وأتقن المناهج اللغوية الحديثة وأحسن استخدامها، وزاد اتجاهًا لغويًا يجمع بين التراث والمعاصرة، وله نظرية في النحو العربي دارت حولها بحوث ضافية في النحو واللغة، وله مدرسة لها عطاء ثري في مجال الحياة اللغوية الحديثة.

من مؤلفاته مناهج البحث في اللغة، اللغة بين المعيارية والوصفية، اللغة العربية معناها ومبناها، الأصول، التمهيد لاكتساب اللغة العربية لغير الناطقين بها، مقالات في اللغة والأدب (جزءان)، البيان في روائع القرآن، الخلاصة النحوية، حصاد السنين.. من حقول العربية وهو الكتاب الذي صدر بعد وفاته بعدة أيام، ومن الكتب التي قام بترجمتها: مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب، الفكر العربي ومكانته في التاريخ، اللغة في المجتمع، أثر العلم في المجتمع، النص والخطاب والإجراء.

وقد حظي الدكتور تمام بتقدير عديد من الهيئات الدولية المعنية باللغة والأدب، فنال الجائزة الأولى في مسابقة مكتب تنسيق التعريب بالرباط ١٩٧٢، وجائزة آل بصير الدولية بالمملكة العربية السعودية عام ١٩٨٤، وجائزة صدام حسين في الدراسات اللغوية عام ١٩٨٧، وجائزة الملك فيصل في الأدب ٢٠٠٥، وكُرم في المؤتمر الدولي للغة العربية والتنمية البشرية الذي عُقد في مدينة وجدة بالمغرب عام ٢٠٠٨.

وقد أشرف الدكتور تمام حسان على عشرات الرسائل العلمية في عدد من الجامعات المصرية والعربية مثل جامعة القاهرة والإسكندرية والخرطوم ومحمد الخامس ومحمد بن عبدالله بنفاس والكويت وأم القرى والإمام محمد بن سعود واليرموك والمستنصرية، وقد أودع معظم هذه الرسائل نظريته اللغوية المعروفة بتضافر القرائن التي يوجزها كتابه «اللغة العربية معناها ومبناها»، وهو ما أوجد بين تلاميذه مدرسة فكرية خاصة في حقل الدراسات اللغوية العربية، توسعت عبر أجيال جديدة من الباحثين والطلاب في كثير من الدول العربية.

وبحسب تلاميذه فإنه يصعب التعريف بقيمة هذا الرجل وعطاءه، نظرًا لطبيعة تخصصه، خاصة لمن هم بعيدون عن حقل الدراسات اللغوية، وبكفي قولهم: حين كنا طلابًا في قسم اللغة العربية كان يُذكر ثلاثة كُتب في غاية الأهمية في دراسة العربية، الكتاب لسيبويه وهو المؤسس للنحو العربي، ودلائل الإعجاز للإمام

عبدالقاهر الجرجاني.. ثم كتاب اللغة العربية معناها ومبناها للدكتور تمام حسان، ولولا طبيعة الزمان وأن المعاصرة حجاب لبويع تمام حسان أميرًا للنحو العربي وللدراسات اللغوية الحديثة في عالمنا العربي.

وعن الأسباب التي جعلت اللغة العربية ذات انتشار واحترام في عالمنا المعاصر يقول الدكتور تمام:

“إنها لغة الحضارة الإسلامية، وما خلفته الأجيال من تراث هذه الحضارة المهمة، لغة اثنتين وعشرين دولة عربية لكل منها أهميتها في مجال ما من مجالات الحياة، ولكل هذه الدول نوع اهتمام بهذه اللغة، إما لأسباب سياسية أو علمية أو اقتصادية أو غير ذلك، إنها واضحة المعالم نحوياً ومعجمياً، ومن ثم يقوم تعلمها على أسس مدروسة، وكان تعدد الدول العربية وأن لكل منها استقلالها وكيانها سبباً في كثرة وسائل الإعلام العربي مقروءاً ومسموعاً، تبعاً لكثرة هذه الدول، وفي تنوع اتجاهات هذا الإعلام، ما جعل الراغبين في الاطلاع على الوضع العربي تتضاعف أعدادهم، وفي ذلك انتشار للغة لعربية أيضاً، والأمة الإسلامية تبعث أبناءها للتعلم إلى الدول العربية، فتكون اللغة العربية لغة تعلمهم، فهي لغة القرآن الكريم ولغة الإسلام والتراث الإسلامي، فإذا عاد هؤلاء الطلاب إلى بلادهم نقلوا ما تعلموه إلى أقوامهم بواسطة اللغة العربية أو الترجمة منها إلى لغاتهم، فكان الفضل في الحالين للعربية”.

وبلغت الدكتور تمام- رحمه الله- إلى أن هناك أسباباً أخرى تدعو للإشفاق على مستقبل هذه اللغة، وإلى ضرورة العمل على خدمتها ووقايتها من عوامل التدهور، حفاظاً على صالح الشعوب العربية والإسلامية على حد سواء، يعود بعض هذه الأسباب إلى موقف الدولة من اللغة، وبعضها الآخر إلى موقف أفراد الشعب، ففيما يتصل بموقف الدولة، سوء حالة التعليم أولاً بمنهج المقررات الدراسية وثانياً بالدروس الخصوصية، وثالثاً بترحيب الدولة بإنشاء دور التعليم الأجنبية كمدارس

اللغات والجامعات المختلفة اللغات، مما يجعل العناية باللغة القومية شبه مفقودة في هذه المدارس والجامعات.

أما موقف أفراد الشعب فنجد نسبة الأميين بين أفراد الشعب تحول بين الجمهور واستعمال اللغة العربية، ومن ثم إلى اللجوء إلى استعمال اللهجات العامية في مناسبات الاستعمال الفصيح، ومحاولة بعض المثقفين أن يبرهنوا أثناء الكلام على وضعهم الثقافي بتطعيم كلامهم العربي بألفاظ أجنبية بقصد التعالي على سامعيهم فتنتشر العدوى منهم إلى غيرهم، وما يقع فيه رجال الأعمال من الإعلان عن منتجاتهم ومصطلحاتهم وعناوين منشآتهم باللغات الأجنبية، فيوحون بذلك دون قصد بأن قيمة اللغة العربية لا ترقى إلى مستوى نشاطهم، أو إلى عجز اللغة العربية عن تقديم ألفاظ تؤدي هذا المطلب.

وقد أعاد تقسيم الكلام العربي على أساس المباني والمعنى .. وفرق بين الزمن النحوي والزمن الصرفي.

الملخص باللغة العربية

ويتضمن البحث مجموعة من العناصر تتلخص في تمهيد وتفصيل، ومقدمة،

نحو الجملة ونحو النص في نظر تمام حسان، النصية

١- عناصر تحقق النصية عند تمام حسان

أ- الاتساق(السبك)

ب- الانسجام (الالتحام)

ثم اختتم البحث بخاتمة ثم قائمة بالمصادر والمراجع

تمهيد

إن المتصفح لمؤلفات الدكتور تمام حسان الكثيرة، من كتب ومقالات وترجمات، يجدها تتضمن نظرية لسانية متكاملة ورائدة، يمكن أن تفتح آفاقاً جديدة في الدرس اللساني العربي الحديث، لأنها نابعة من صلب الموروث العربي ومنتشعة بإجراءات وآليات البحث العلمي المعاصر؛ حيث يقول محمود أحمد نحلة: "لا أعرف باحثاً استطاع أن يطور منهجاً جديداً من التراث النحوي والبلاغي، معتمداً على منهج من مناهج الدرس اللغوي الحديث، غير الدكتور تمام حسان في كتابه الذي أصدره سنة ١٩٧٣، وهو (اللغة العربية معناها ومبناها)^(١) فهو كما يقول: "صاحب أجراً محاولة شاملة لإعادة ترتيب الأفكار اللغوية تجري بعد سيبويه وعبد القاهر"^(٢)، وعلى إثر هذا الطرح يكون تمام حسان استطاع أن يضيف للدرس اللساني العربي جدة غير معهودة في الدراسات المعاصرة له، ويفتح الباب على مصراعيه لأفكار لم يسبق إليها أحد قبله، وأن يحرك البحث اللغوي بوضعه قاعدة منهجية لكل محاولة في هذا الصدد. فلم تكن "نظريات الدكتور تمام حسان ونظراته في اللغة من ذلك النوع الهادئ العابر الذي يعلن على الملأ فيمر مرور الكرام، ويقف عند هذا الحد وكفى، بل كانت تبعث في العقل اللغوي فضل تأمل، وإعمال نظر، وطول تدبر"^(٣) وإن تعدد المرجعيات الفكرية لدى تمام حسان في استقاء أفكاره مكتنه من أن يتزود من المنابع الأصلية للتراث العربي، ويضاف إلى هذا معاصرته لأهم المناهج الحديثة؛ إذ أخذ على يد أحد رواد هذه المدارس الغربية وهو (فيرث) رائد مدرسة لندن (المدرسة الاجتماعية البريطانية) وفيما يخص إطلاعه على نظرية تشومسكي (Chomsky) فيقول: "لقد ظهر لي كتاب (اللغة العربية معناها ومبناها) عام ١٩٧٣ م.

(١) د. محمود أحمد نحلة، مدخل إلى دراسة الجملة العربية، بيروت: ١٩٨٨، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ص ٨١.

(٢) د. تمام حسان، اللغة العربية ومبناها، ط٣، القاهرة: ١٩٩٨ م، عالم الكتب، ص ١٠.

(٣) ينظر: د. عبد الرحمن حسن العارف، تمام حسان رائداً لغوياً، ط١، القاهرة: ٢٠٠٢، عالم الكتب للنشر والتوزيع والطباعة، ص ٨.

مقدمة:

وإن إعادة قراءة كتاب (اللغة العربية معناها ومبناها) في ضوء النظريات المعاصرة - لا سيما لسانيات النص والتداولية - تفتح آفاقاً جديدة في الدرس النحوي للغة العربية، فتمام حسان أثار عدة مسائل في كتابه أصبحت اليوم من المسلمات في دراسة اللغة كالاتساق، والانسجام، والسياق إلى غير ذلك من المصطلحات التي تباها، يعود بعضها إلى استنطاقه للتراث العربي، والبعض الآخر استمدته من علم اللغة الحديث.

وإن الدارس لمؤلفات الدكتور تمام حسان يجد فيها محاولة جادة لدراسة النص العربي في ضوء عناصر هذه النظرية، ورأى الدكتور تمام أن الوظائف التي تؤديها القرائن اللفظية هي الاتساق (Cohesion) والوظائف التي تؤديها القرائن المعنوية هي الانسجام (Coherence) وإذا اضطرب السبك* (التركيب اللغوي) لم يكن له كفاءة إعلامية، ولهذا فرق بين جملة (جاء الجندي على أهية الاستعداد) والجملة ذاتها بعد انفراط عقد سبكها (على جاء أهية الجندي الاستعداد)؛ لأن النظام النحوي يتمثل في عدد من القرائن الدالة على معاني النحو، ومن القرائن اللفظية قرينة التضام، وهي تشتمل على مفاهيم الافتقار والاختصاص والتنافي، ثم قرينة الرتبة والربط، فالجملة الثانية خلت من السبك، لأنها خالفت النظام النحوي من سياق النص، أو من سياق الموقف، فإذا لم تقم هذه القرينة لم تكن هناك كفاءة إعلام^(١)، ونجد الدكتور تمام حسان قد قسم القرائن المقالية إلى قسمين كبيرين: أحدهما القرائن اللفظية، والآخر القرائن المعنوية، قد ألمح إلى معيارين من معايير النص هما الاتساق والانسجام، فالقرائن اللفظية من إعراب، ورتبة، ومطابقة، تضام، بالإضافة إلى الأداة والتنغيم تندرج عند علماء النص ضمن معيار الاتساق، في حين تندرج القرائن المعنوية من إسناد وتخصيص، ونسبة وتبعية ضمن معيار انسجام النص.

* نفضل استعمال مصطلح الاتساق والانسجام عوض السبك، والملائمة أو الالتحام، وهي مصطلحات متقاربة في المعنى.

(١) د. عبد الرحمن حسن العارف، تمام حسان رائداً لغوياً، ص ٤٤ - ٤٥.

ويقصد بالاتساق عند علماء النص التماسك الشديد بين الأجزاء المشككة لنص أو خطاب ما، ويهتم فيه بالوسائل اللغوية الشكلية التي تربط بين عناصر النص، ويعتمد وصف اتساق نص معين برصد الضمائر، والإشارات المحلية، ووسائل الربط المتنوعة كالعطف، والاستبدال والحذف، والمقارنة، والاستدراك، أما إذا كان النص خالياً من هذه الوسائل؛ وهذا النوع من الكتابة تمليه ضرورات تواصلية (التلغراف، الإعلانات الحائطية...) أو مقصدية إبداعية ابتكارية (الشعر الحديث مثلاً) فحين يحدث هذا يتحول الاهتمام إلى انسجام النص^(١). فالاتساق يترتب على إجراءات تبدو بها العناصر السطحية (Surface) على صور وقائع يؤدي السابق منها إلى اللاحق (Progressive Occurrence) بحيث يتحقق لها الترابط الرصفي (Sequential Connectivity) حيث يمكن استعادة هذا الترابط، وعنصر الانسجام يتطلب من الإجراءات ما تنشط به عناصر المعرفة لإيجاد الترابط المفهومي (Conceptual Connectivity) واسترجاعه^(٢)، ويبدو من خلال هذا أن الاتساق يحدث في بنية النص، على خلاف الانسجام الذي يكون للمتلقي فيد الدور الكبير في بنائه لرصد الجزء الخفي وراء النص.

وحدد روبرت دي بوجراند (Beaugrande) ودريسلر (Dressler) المعايير السبعة التي يتحقق من خلالها، لتحقيق ما يطلق عليه (النصية) وهذه المعايير هي^(٣):

١. الاتساق (التضام) (Cohesion): وهو يشمل الإجراءات المستعملة في توفير الترابط بين عناصر ظاهر النص، كبناء العبارات والجمل، واستعمال الضمائر، وغيرها من الأدوات.

٢. الانسجام (التقارن) (Coherence): ويشمل الإجراءات المستعملة في إثارة

(١) د. محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ط ١. الدار البيضاء: ١٩٩١، المركز الثقافي العربي، ص ٥.

(٢) روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، تر: تمام حسان، ط ١، القاهرة: ٢٠٠٧، عالم الكتب، ص ١٠٣.

(٣) روبرت دي بوجراند وولفغانج دريسلر، مدخل إلى علم لغة النص، تر: د. إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، ط ١، القاهرة: ١٩٩٣، مطبعة دار الكتاب، ص ١١ - ١٢.

عناصر المعرفة من مفاهيم وعلاقات، فمنها منطقية كالسببية، ومنها معرفة كيفية تنظيم الحوادث، ومنها أيضاً محاولة توفير الاستمرارية في الخبرة البشرية.

٣. القصدية (Intentionality): وهي قصد منتج النص من توفير الاتساق والانسجام لهدف معين.

٤. المقبولية (Acceptability): وهي تقبل المستقبل للنص باعتباره متسقاً ومنسجماً.

٥. الموقفية (Situationality): وهي العوامل التي تصل النص بموقف معين.

٦. الإعلامية (الإخبارية) (Information): وتشمل عامل الجودة في النص.

٧. الناص أو النصوصية (Intertextuality): وتتضمن العلاقات بين نص ما ونصوص أخرى ذات صلة.

إن نحو النص يشمل النص وسياقه، وظروفه، وفضاءاته، ومعانيه المتعاقبة، القبلية والبعديّة مراعيّاً ظروف المتلقي وثقافته، وأشياء أخرى كثيرة تحيط بالنص، ولم يقصد دي بوجرانند ودريسلر ضرورة تحقق هذه المعايير السبعة في كل نص، وإنما يتحقق الاكتمال النصي بوجودها، وأحياناً تتشكل نصوصاً بأقل قدر منها.

وفي هذا المبحث سنحاول إسقاط هذه المفاهيم السبعة، على الآراء النحوية التي أوردها الدكتور تمام حسان في كتابه (اللغة العربية معناها ومبناها) لنثبت من خلاله أن هذا الكتاب يعد حلقة وصل بين نحو الجملة ونحو النص، وأنّ تماماً كان يسعى من خلال قوله بتضافر القرائن إلى تجاوز حد الجملة في التحليل اللغوي إلى النص.

وقبل أن نستعرض آراء الدكتور تمام حسان في هذا المجال، يجدر بنا أن نفرق بين نحو الجملة ونحو النص.

١-١ نحو الجملة ونحو النص في نظر الدكتور تمام حسان: يرى الدكتور تمام حسان أن النحاة العرب عندما استنبطوا قواعدهم من كلام العرب، حرصوا على أن يتحقق لنحوهم

عدد من الصفات منها^(١):

١- الاطراد: ومن ثم كانت القاعدة عندهم حكماً على اللغة الفصيحة، رغم اعترافهم للشذوذ بالفصاحة، إذ تقول الأصولية (الشذوذ لا ينافي الفصاحة) وظل الشذوذ يحتسب خروجاً عن شروط النحو.

٢- المعيارية: ومعناها أن القاعدة معيار للصحة والخطأ، وهكذا كانت القاعدة سابقة على النص، فلا يرتضي النحو نصاً إلا إذا وافق القواعد التي سبق استنباطها.

٣- الإطلاق: بمعنى أن القاعدة النحوية صادقة على ما قيل من قبل، وما سيقال من بعده، فهي الحكم الذي يرد إليه كل كلام.

٤- الاقتصار على بحث العلاقات في حدود الجملة، "فالنحاة حسبوا جهودهم في الجملة الواحدة ولم يتجاوزوها إلا إلى علاقتها بجارتها المباشرة، سواء أكانت هذه العلاقة إضراباً* أم استدراكاً أم عطفاً^(٢). ومن هنا صح تسمية هذا النحو بنحو الجملة.

وبهذه الصفات التي قررها الدكتور تمام حسان للنحو القديم اتّخذ سلطان القاعدة المعيارية وهيمنت على الاستعمال اللغوي، ولا ينبغي أن تنحصر غاية النحو في البحث عن أواخر الكلمات إعراباً وبناءً -على أهميتها وخطرها تبقى غاية الغايات- وغنما لا بد من منهج يستنبط به صاحبه غاية يلتقي عندها هم المتكلم والسامع والنحوي، ويربط وسائل العبارة ووظائف المباني بهذه الغاية^(٣)، وصار من الضرورة بمكان الاهتمام بالنص عوض

(١) د. تمام حسان، نحو الجملة ونحو النص، محاضرة أقيمت ضمن النشاط الثقافي لمعهد اللغة العربية بجامعة أم القرى ١٤١٤هـ، مقال غير منشور.

* الإضراب إبطال كلام سابق، ويغلب أن يكون بالجملة الخبرية، كما في قوله تعالى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ" [البقرة: ١١-١٢] أي بل هم مفسدون. ينظر: د. تمام حسان، اجتهادات لغوية، ص ٣٠٥.

(٢) د. تمام حسان، اجتهادات لغوية، ص ٣٠٠.

(٣) د. سعد عبد العزيز مصلوح، في اللسانيات العربية المعاصرة، دراسات وثقافات، ط ١، القاهرة: ٢٠٠٤، عالم الكتب، ص ٢١٠.

الجملة في التحليل؛ إذ إن التواصل لا يتحقق بجملة واحدة، بل في توالي مجموعة من الجمل، مع مراعاة المرسل والمتلقي وظروف إنتاج الكلام في عملية التخاطب، وهذا هو غاية الدراسات اللغوية الحديثة.

ويتكئ الدكتور تمام حسان على الصفات السابقة ليفرق بين نحو الجملة ونحو النص بالمفهوم المعتمد لديه، فيرى أن نحو النص ينأى عن كل هذه الصفات الأربع، فهو بالنسبة للاطّراد يعترف بالمؤشرات الأسلوبية، وهي تصرفات فردية يلجأ إليها منشئ النص، ليشير بها انتباه المتلقي. والمعروف أن المؤشرات الأسلوبية لا تأتي على نسق واحد مطرد، وإنما تختلف من فرد لآخر وأما من حيث المعيارية، فنحو النص أبعد ما يكون منها، لأنه نحو تطبيقي غير نظري، فلا ينشأ إلا بعد أن يكتمل النص، وبعد أن يكون النص حاضراً ومعرضاً لتطبيق النحو عليه مستخرجاً من مادته، ونحو النص يختلف عن نحو الجملة باعتبار الإطلاق لأنه لا يطبق على كلام قبل أن يصاغ هذا الكلام، ولا أثناء صياغته، ويختلف النمطان بالنسبة للاقتصار على تناول العلاقات في داخل الجملة، لأن نحو النص مسرحه النص كاملاً أيّاً كان طوله^(١). وإذا تتبعنا مختلف الكتب التي ألفت في مجال لسانيات النص نجد أنها ترصد لنا مجموعة من الفروق بين لسانيات النص ولسانيات الجملة، وهي لا تبعد عما حدده د. تمام حسان من قبل ومن أهم هذه الاختلافات ما يلي^(٢):

- تنتمي الجملة إلى نظام افتراضي (النحو) في حين يعد النص نظاماً واقعياً، تكون خلال عمليات اتخاذ القرارات، والانتخابات من بين مختلف خيارات الأنظمة الافتراضية.
- تتحدد الجملة بمعيار أحادي (علم القواعد) من نظام معرفي وحيد (علم اللغة) في حين تتحدد نصية النص بمعايير عدّة من مختلف الأنظمة المعرفية.
- تحدد القاعدة الجملة، أما النص فلا تنطبق عليه معايير النصية بمثل هذه الحدة.

(١) د. تمام حسان، نحو الجملة ونحو النص، مقال غير منشور.

(٢) د. إلهام أبو غزالة، علي خليل حمد، مدخل إلى علم لغة النص، تطبيقات لنظرية روبرت ديوجراند وولفجانج دريسلر، ط ٢. مصر: ١٩٩٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ١٠ - ١١.

- يتأثر النص بالأعراف الاجتماعية، والعوامل النفسية، وبموقف وقوع النص بوجه خاص، في حين يضعف تأثير الجملة بهذه المؤثرات.
- يستند استغلال الجمل إلى المعرفة القواعدية التابعة لنظام افتراضي، له صفة العمومية أما استغلال النص فيستند إلى معرفة خبرات بوقائع فعلية خاصة.
- يعد النص حدثاً يقصد به شخص إلى توجيه المستقبل صوب بناء علاقات متنوعة لا تقتصر على العلاقات القواعدية، وكذلك إلى التأثير في مواقف بشرية، وذلك خلافاً للجملة التي لا تمثل حدثاً وإنما تستعمل لإبراز العلاقات القواعدية بمعزل عن النص.
- تتخذ الجملة شكلاً معيناً وفقاً لنظام افتراضي محدد ومعلوم، في حين تتشكل بنية النص بحسب ضوابط المتكلم والمتلقي على حد سواء.

ويرى الدكتور تمام حسان أن نحو الجملة ونحو النص يلتقيان في صفتين هما^(١):

▪ التضام.

▪ الاتساق.

وتتناول الصفة الأولى اللفظ، في حين تتناول الثانية المعنى؛ فالتضام علاقة تشمل أموراً مثل الافتقار، والاختصاص، والتلازم، والمطابقة، وعود الضمير، والداخل والمدخول وهلم جرا، أما الاتساق فهو علاقة في المعنى بين المتضامين. ليكون بذلك نحو النص لا يرفض نحو الجملة رفضاً مطلقاً، بل يتجاوز العلاقات داخل الجملة الواحدة، إلى النص على اتساعه وتوجد صفات أخرى يختص بها نحو النص حسب رأي د. تمام حسان، ولا تعني نحو الجملة في شيء، وهي:

١. القصد: فليس من قبيل النص ما نسمعه من لغو الكلام وحشوه، وكلام السكران والمكره والناسي والمخطئ، فإذا لم يتحقق القصد لم يتحقق النص بالمعنى الاصطلاحي.

(١) د. تمام حسان، نحو الجملة ونحو النص، مقال غير منشور.

٢. التناص: وهو علاقة تقوم بين أجزاء النص، كما تقوم بين النص والنص، كعلاقة السؤال بالجواب، وعلاقة التلخيص بالنص الملخص، وعلاقة المتن بالشرح.

٣. رعاية الموقف: ومن رعاية الموقف أنه لا يجوز الكلام أثناء الصلاة إلا بقراءة الفاتحة وتفهم السبب في امتناع أن يعزي أحدنا الآخر وهو يبتسم، وامتناع أن يغني الطالب أثناء الدرس.

٤. الإعلامية: ومعناه أن يكون للنص محتوى يجري إبلاغه للمتلقى بواسطة هذا النص.

٥. القبول: ويقابل مطابقة القاعدة في نحو الجملة.

عناصر تحقق النصية عند تمام حسان

قسم الدكتور تمام حسان القرائن المقالية إلى قسمين أساسيين وهما القرائن اللفظية والقرائن المعنوية، وفي عمله هذا يكون قد وضع معيارين من معايير النصية، هما الاتساق والانسجام (السبك والحبك) كما أشرنا سابقاً، وما يحسب للدكتور تمام حسان أنه أدرك أهمية المقام في تحديد المعنى، واهتم علماء النص بالمقامية، التي قصدها البلاغيون العرب القدامى بفكرة المقام حين قالوا: (لكل مقام مقام) و (لكل كلمة مع صاحبها مقام) وهي تضم المتكلم، والسامع، والظروف والعلاقات الاجتماعية والأحداث، وقد أولى علم اللغة النصي اهتماماً بالتعبير عن هدف النص فيما سمي بمعيار القصدية، الذي فطن إليه الدكتور تمام حسان عندما قال في تقديم كتاب (اللغة العربية معناها ومبناها) "لا بد أن يكون المعنى هو الموضوع الأخص لهذا الكتاب لأن كل دراسة لغوية -في كل لغات العالم- لا بد أن يكون موضوعها الأول والأخير هو المعنى وكيفية ارتباطه بأشكال التعبير المختلفة"^(١) ولعله قصد بالمعنى هنا معيار (القصدية) ليس ذلك فحسب بل أفرد بحثاً موجزاً في الكتاب نفسه بعنوان (غايات الأداء)^(٢) قصد منه غايات النصوص وأهدافها ومن غايات الأداء -عنده- التشجيع والمصادقة، والتشبيط، والشتم، والتمني والترجي واللعن، والفخر والتحدي والتحييض والاستخفاف والتحقير والتعظيم والإخبار وغيرها من الغايات، التي يهدف إليها النص، كما فطن الدكتور تمام حسان إلى معيار المقبولية الذي يتعلق بموقف المتلقي الذي يعطي انطباعاً على النص؛ إذ يقول: "بحسب هذا الفهم الشامل لفكرة (المقام) يعتبر النص (المقال) غير منبت عمن ساقه ومن سيق إليه"^(٣)، وبهذا المقام عند الدكتور تمام حسان يشمل ثلاثة معايير من معايير النصية هي المقبولية والإخبارية والموقفية.

(١) د. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص ٩.

(٢) نفس المرجع، ٣٦٣.

(٣) د. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص ٣٥١.

ويرى د. تمام حسان فيما يخص التناسق أو تداخل النص مع غيره من النصوص، أن "ذلك ليس غريباً على الفكر الإسلامي على كل حال، فمن العبارات المشهورة في عرف المفسرين للنص القرآني، أن القرآن يفسر بعضه بعضاً، وأن السنة تخصص عموم القرآن وأن الاستشهاد وسيلة من وسائل التوثيق"^(١) أما في كتابه (اللغة العربية معناها ومبناها) فيوضح مفهوم التناسق بقوله: "إن من المقال ما يتصف بصفات معينة أو ما يتوافر له مزايا معينة تجعله صالحاً للاستحضار في المقامات التي تشبه مقامه الأصلي الذي قيل فيه فيصبح المقال جزءاً من المقام الجديد فيدخل في تحليل هذا المقام الجديد"^(٢) ولم يقتصر جهد الدكتور تمام حسان على تتبع عناصر النظرية النصية، بل إن الدارس يستطيع أن يجد في كتاباته محاولة جادة لدراسة النص العربي في ضوء عناصر هذه النظرية، وكما أسلفنا من قبل، سنحاول تتبع آرائه فيما يخص المعايير السبعة التي تتحقق من خلالها نصية النص.

١-٢-١- الاتساق (السبك): فرّق تمام حسان بين ثلاثة أشكال من الربط في النص العربي وهي: الربط بالأداة، والربط بإعادة عنصر لفظي، والربط بالإحالة إلى مفهوم أو مذكور سابق.

أ- الربط بالأداة: قسم تمام حسان الأدوات بحسب ورودها في الجملة إلى^(٣):

- الأدوات التي تدخل على الجمل: كالنواسخ، وأدوات النفي، والتأكيد، والاستفهام، والنهي والتمني، والترجي، والعرض، والتخصيص، والقسم، والشرط، والتعجب، والنداء، وتكون رتبة هذه الأدوات على وجه العموم الصدارة.

- الأدوات التي تدخل على المفردات: كحروف الجر التي تفيد العلاقة بينها وبين مجرورها، فيف قوله تعالى: "وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ" [النساء: ٣٢] فالسؤال يبدأ غايته من الفضل، والعطف، والاستثناء الذي يدل على علاقة الإخراج، والمعية، والتحقيق والتعجب،

(١) د. تمام حسان، البيان في روائع القرآن، ص ٤٠٣.

(٢) د. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص ٣٤٠.

(٣) د. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص ٢٢٤.

والتقليل والابتداء، والنواصب والجوازم التي تجزم فعلاً واحداً، وتكون رتبة هذه الأدوات التقدم دائماً.

– الأدوات الداخلة على صدور الجمل: كوقوع الفاء في جواب الشرط، وإذا الفجائية، واللام الواقعة في جواب لولا، والواقعة في جواب القسم، والفاء الواقعة في جواب أما^(١)، وإذا نظرنا إلى الأجوبة في كل هذه الأنواع، وجدنا القاعدة تنص على اقترانه بحرف الجواب، تجنباً للبس إذا لم يذكر الحرف في صدر الجواب، فإذا تأملنا قوله تعالى: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا) [فصلت: ٤٦] ثم تصورنا حذف الفاء من الجواب، لوجدنا شبه الجملة (فعمله لنفسه) يصل صفة للمفعول (صالحاً)^(٢) فالتركيب دون حرف الجواب يؤدي إلى اللبس، وتعدد احتمالات المعنى.

ب- الربط بإعادة عنصر لفظي: ومن الربط ما يكون بالترداد، والمقصود بالترداد، إما المطابقة، وإما التكرار^(٣)، فأما المطابقة فتقوي الصلة بين المتطابقين، وتساعد على التحام أجزاء التركيب، ولولاها لما كان المعنى، وقدم الدكتور تمام حسان مثلاً يبين دور المطابقة بين عناصر السياق من حيث الشخص والعدد والنوع والتعيين والإعراب، وهي الجملة الآتية (الرجلان الفاضلان يقومان)^(٤) فتبين أنه يستحيل إزالة المطابقة من جهة واحدة، أو من عدة جهات، فلا أن يجوز أن نقول:

– الرجلان الفاضلين يقومان (إزالة المطابقة في الإعراب).

– الرجلان الفاضلان تقومون (إزالة المطابقة في الشخص).

– الرجلان الفاضل يقومون (إزالة المطابقة في العدد).

– الرجلان الفاضلتان يقومان (إزالة المطابقة في النوع).

(١) د. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص ٢١٥.

(٢) ينظر: د. تمام حسان، مقالات في اللغة والأدب، ج ١، ص ١٨٠.

(٣) د. تمام حسان، مقالات في اللغة والأدب، ص ٢١٥.

(٤) د. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص ٢١٣.

- الرجلان فاضلان يقومان (إزالة المطابقة في التعيين).

- الرجلان فاضلات أقوم (إزالة المطابقة في جميع ذلك).

ويرى تمام حسان أن إزالة المطابقة تذهب بعلائق التركيب، وتزيل المعنى المقصود من الكلام، وأن إبقائها إيصال للمعنى المراد، وأما التكرار فيكون بإعادة اللفظ

يستدعي الدقة.	- المراجعة (إعادة لنفس الكلمة).	بدأت في مراجعة مذكرتي
	- إعادة القراءة (مرادف، أو شبه مرادف).	
	- العمل (عنصر مطلق).	
	- الشيء (كلمة عامة).	

نحو (الشرق شرق والغرب غرب لا يلتقيان) أو بإعادة معنى اللفظ كقولنا (محمد شفيعي نبي الله) أو بالعهد الذكري نحو (زيد نعم الرجل) ويرى الدكتور تمام أن هذه الأنواع جميعاً من واد واحد^(١)، والتكرار هو شكل من أشكال الاتساق المعجمي، ويتطلب إعادة عنصر معجمي، أو ورود مرادف له أو شبه مرادف، أو عنصراً مطلقاً أو اسماً عاماً^(٢)، والمثال الآتي يوضح كل حالة:

ويكون د. تمام حسان قد فصل القول في التكرار في بحث آخر سماه (ظاهرة الربط في التركيب والأسلوب العربي) وأضاف إلى الأنواع السابقة تكرار المطلق.

وقدم الدكتور تمام أمثلة من القرآن الكريم ليبين ظاهرة الربط بالتكرار في ثلاثة

(١) د. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص ٢١٦.

(٢) د. محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ص ٢٤.

أشكال^(١):

١. تكرر اللفظ: وهو عنده الأصل في الربط، من حيث كان خير وسيلة للتذكير بما سبق للوصول إلى الربط، ففي تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ) [الحجرات: ١٢] لو تصورنا الضمير في موضع (الظن) الثاني، لاحتمل الضمير العود إلى (كثير) أو إلى (الظن) وهذا لبس يتنزه عنه القرآن الكريم، وأيضاً في قوله تعالى: (فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدٌ) [الفجر: ٢٥ - ٢٦] فمعروف أن لفظ (أحد) في الحالتين نكرة واقعة في سياق النفي، وأن وضع النكرة هذا الموضع يجعلها مفيدة للعموم فلو تصورنا في مكان (أحد) الثانية ضميراً، لما أجزأ في الإفادة بالدلالة على معنى العموم المقصود.

٢. تكرر المعنى: ويكون مع إجمال الأول وتفصيل الثاني، فإذا قلت (عقيدتي لا إله إلا الله) فإن العقيدة مجملة وتشمل محمد رسول الله، وأن هناك بعثاً وحساباً وجنة أو ناراً، أما جملة (لا إله إلا الله) فهي من تفصيل الأول، ومن ثمة كان المعنى مكرراً، ومن ذلك قوله تعالى: (دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُحْحَانُكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجَ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [يونس: ١٠] ففي هذه الآية ثلاث جمل يقوم الربط في كل واحدة على تكرر المعنى، وهي:

- دعوَاهم فيها، كرر المعنى ب: سبحانك اللهم.

- وتحييتهم فيها، كرر المعنى ب: سلام.

- وآخر دعوَاهم كرر المعنى ب: أن الحمد لله رب العالمين.

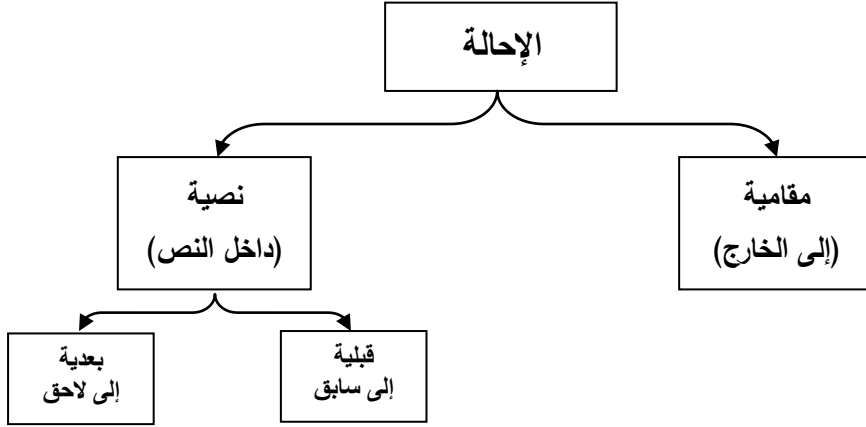
يبدو لنا أن تمام حسان كان يقصد بتكرار المعنى، تضمن المكرر معنى الأول، إما معناه الجزئي كما في المثال الأول، وإما معناه الكلي كما في الآية الكريمة، وكلاهما يساعد على تقوية المعنى وإيضاحه، وربط أجزاء النص بعضها ببعض.

(١) د. تمام حسان، مقالات في اللغة والأدب، ج ١، ص ١٨٧.

٣. تكرار المطلع: ويقصد به تكرار لمطلع الجملة، لأداء غرض أسلوبية، إما للتأكيد كقوله تعالى: (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْسِرُ الْمُبْطِلُونَ) [الجناتية: ٢٧] وإما للتذكير، كما في قوله تعالى: (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْهِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) [البقرة: ٨٩] ويكون بتكرار اللفظ كما هو، أو مع تعديل طفيف كقوله تعالى: (فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعُ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ) [النور: ٣٦ - ٣٧]، أو يكون إشارة إلى المطلع كقوله تعالى: (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) [يونس: ٥٨] أو وصفا للمطلع كقوله: (فَبِمَا نَفْسِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩) فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدَدِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا) [النساء: ١٥٥ - ١٦٠] فقد وصف النقص والكفر والقتل وما تكرر من القول، فجعل كل أولئك ظلما، وجعل الظلم تلخيصاً لما تقدم، وتكراراً له للتذكير به.

ونستشف من خلال هذه الأمثلة، أن تكرار مطلع الجملة يؤدي غرضاً أسلوبياً، ويساعد على تثبيت الكلام في ذهن المتلقي لما له من أهمية؛ لذا يلجأ إليه المتكلم إما لتذكير السامع ما يريد قوله في أول الكلام أو لتأكيد، أو لوصف معنى معين بمعان فرعية تدخل كلها في المعنى الأعم.

ج- الربط بالإحالة*: تعتبر الإحالة علاقة دلالية، وتخضع لقيود دلالي، وهو وجوب تطابق الخصائص الدلالية بين العنصر المحيل والعنصر المحال إليه، ومن عناصر الإحالة الضمائر وأسماء الإشارة وأدوات المقارنة، وتنقسم الإحالة إلى: إحالة مقامية وإحالة نصية، وتفرع الثانية إلى إحالة قبلية وإحالة بعدية^(١)، ونوضح ذلك بالشكل الآتي:



ويكون الربط بالإحالة في رأي تمام حسان على أشكال منها:

١- الإحالة بالضمائر: ويعني به استعمال الضمير بدل الاسم، وحين يعود الضمير يكون عوده على مذکور متقدم لفظاً ورتبة، أو لفظاً دون رتبة، أو رتبة دون لفظ، ويعود بعضها على متأخر لفظاً ورتبة كضمير الشأن^(٢)، فالضمير يحيل إلى اللفظ، ويغني عن تكراره،

* الفرق بين الإحالة وتكرار المعنى، أن هذا الأخير يكون من خلال جملة ملفوظة كلها أو مقدر بعضها، أما الإحالة فمعظم صورها من قبيل مبدأ الاختصار، حيث هي عود للضمير إلى مرجع أو إشارة إلى ذلك المرجع، أو وصف له.

ينظر: د. تمام حسان، مقالات في اللغة والأدب، ج ١، ص ١٩٤.

(١) د. محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ص ١٧.

(٢) د. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص ٢١٥.

واستعماله مقيد بشرطي المطابقة في اللفظ، والمطابقة في القصد، كما في قوله تعالى: (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ) [يوسف: ٥٨] ففي هذه الآية حل كل من ضميري المفرد محل كلمة (يوسف) وحل كل من ضميري الجمع محل لفظ (إخوة).

والأصل أن يكون للضمير مرجع يحيل عليه ليتحقق الربط، "وأما عوده على مفهوم من الكلام السابق، فنحو قوله تعالى (وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ) [فاطر: ١٨] فالضمير المستتر في (كان) كما يقول النحاة عائد على مفهوم من الفعل (تدع) أي (لو كان المدعو ذا قربي)^(١) فيكون التقدير عندئذ: وإن تدع مثقلة مدعواً إلى حملها، لا يحمل منه شيء ولو كان المدعو ذا قربي.

٢- الإحالة بأسماء الإشارة: يرى تمام حسان أن القول بالربط باسم الإشارة ليس جديداً بل مثل له النحاة القدامى، واعترفوا له بوظيفة الربط^(٢) ومن استعمال اسم الإشارة في الربط قوله تعالى: (يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ) [التغابن: ٩] وقوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [البقرة: ٣٩]. والمعروف أن أسماء الإشارة تقوم بالربط القبلي والبعدي، وهي تحيل دائماً لعنصر سابق في الجملة، وينفرد اسم الإشارة المفرد الذي يحيل إلى جملة بأكملها، أو إلى مجموعة من الجمل، ففي قولنا: (استيقظت باكراً، وطول اليوم وأنا أعمل، وبعدها زرت صديقي المريض في المستشفى، هذا ما أتعبني) فاسم الإشارة المفرد (هذا) يحيل إلى المتواليات السابقة من الجمل.

١-٢-٢- الانسجام (الالتحام): إن المتتبع للآراء النحوية التي قدمها الدكتور تمام حسان في كتابه (اللغة العربية معناها ومبناها) يجد أنه قد عرض مجموعة من العلاقات المعنوية، التي توجه المعنى في النص العربي، أو ما يسمى في اللسانيات النصية بمظاهر الانسجام، وهي عنده:

أ- علاقة السببية: وفي هذه الحالة يكون الحدث الثاني استجابة عقلية للحدث

(١) د. تمام حسان ، اللغة معناها ومبناها ، ص ٢١٥ .

(٢) د.تمام حسان، مقالات في اللغة والأدب، ج٢، ص ١٩٨ .

الأول ولكنه ليس مسببا له أو داعيا إليه، بل إنه ممكن بسببه، "وإذا قلت: أتيت رغبة في لقائك أو لألقاك، فإنك قد أسندت الإتيان إلى نفسك مقيداً بسبب خاص"^(١)، ويرى الدكتور تمام حسان أن السبب يسبق المسبب دائماً، ولكن في الاستعمال اللغوي يفرق بين السببية المملوطة، والسببية الملحوظة، فأما الأولى فقد يتقدم فيها السبب على المسبب، فتكون الأداة هي فاء السببية نحو قوله تعالى: (وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ) [هود: ١١٣] وقد يتقدم المسبب على السبب فتكون الأداة هي لام التعليل نحو قوله تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) [البقرة: ١٤٣] فالشهادة على الناس سبب لجعل الأمة وسطاً، أما الثانية (الملحوظة) فتقوم بين مسبب سابق وسبب لاحق، والتي تعبر عنها لام التعليل، وتوضح علاقة السببية في قوله تعالى: (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا) [البقرة: ٧٠] أي لأن البقر تشابه علينا^(٢).

ب- علاقة التفسير: والتفسير يكون عند الحاجة إلى الإيضاح، ولا تكون هذه الحاجة إلا عند المبهم، والمبهم الذي يفسره التمييز حسب د. تمام حسان إما أن يكون^(٣):

- معنى الإسناد؛

- معنى التعدية؛

- اسما مفردا دالا على مقدار مبهم.

وتشير علاقة التفسير إلى جملة في النص تكشف عن المقصود، بجملة سابقة أو عنصر سابق^(٤) وقد مثل لها الدكتور تمام حسان بعدد من الآيات القرآنية سنكتفي بإيراد واحدة منها، وهو قوله تعالى (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) [البقرة: ١٨٦] ففسر سبحانه وتعالى مدى القرب بإمكان إجابة الدعوى (أي قريب

(١) د. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص ١٩٥.

(٢) د. تمام حسان، اجتهادات لغوية، ص ٣٠١.

(٣) د. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص ١٩٩.

(٤) د. تمام حسان، اجتهادات لغوية، ص ٢٠٠.

بحيث أوجب دعوة الداع إذا دعان).

ج- علاقة الملابس: وهي التي تفيد معنى الحال، بواسطة الاسم المنصوب، أو الجملة مع الواو^(١)، والملابسة اتفاق أمرين، أو شركتهما في المكان والزمان أو كليهما، كقوله تعالى: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ) [المائدة: ١٥] فمجيء الكتاب ملابس لمجيء الرسول (صلى الله عليه واله وسلم).

د- علاقة الموقف: للموقف التي يحدث فيه أداء النص دور مهم في فهم النص، كما أنه وسيلة مهمة تحقق الترابط المعنوي بين عناصر النص، وقد يتوقف الفهم على نوع العلاقة بين المتكلم والسامع^(٢)، ومن رعاية الموقف أنه لايجوز التكلم أثناء الصلاة إلا بقراءة الفاتحة والسورة، وأنه لا يعزى أحدنا الآخر وهو يتتسم، وامتناع أن يغني الطالب أثناء الدرس^(٣)، فحسب الدكتور تمام حسان ينبغي أن يكون النص مناسباً للموقف الذي يقال فيه.

هـ- الإعلامية: ومعناها أن يكون للنص محتوى يجري إبلاغه للمتلقي، بواسطة هذا النص^(٤) ويكون د. تمام حسان قد أبعد الكثير من الشعر الحديث، الذي لا يوجد له معنى، ولا يحس القارئ فيه ذوقاً فهو كما وصفه تمام حسان كالخنثى المشكل، لا ينسب إلى شعر ولا إلى نثر، ولا يتمتع بصفتي التضام والاتساق، لا على مستوى نحو الجملة، ولا على مستوى نحو النص. وأورد نصاً مصنوعاً للاستشهاد ليقف على المقصود من الإعلامية، وهو: "إن الذي يرى خواطر التاريخ المقبل، وما تنطوي عليه من تهاويل النزاعات الدقيقة، لا بد أن تبهره أحلام الواقعية، التي تمتد على روافد التاريخ، ولقد كان الإنسان في كل ناحية، من نواحي الوشائج الفارحة في التطور العاطفي، قائماً بالقسط بين النية والطوبة، في تعامل مع غيره من الضوابط، وفي موقفه حيال متغيرات الظواهر ولئن كان المد السكوني المتاح

(١) د. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص ١٩٨.

(٢) د. تمام حسان، مقالات في اللغة والأدب، ج ٢، ص ١٩٨.

(٣) د. تمام حسان، نحو الجملة ونحو النص، مقال غير منشور.

(٤) د. تمام حسان، نحو الجملة ونحو النص، مقال غير منشور.

للإنسان (منظوراً إليه في ضوء الجزر الحركي لأنواع الجماد) لم يأت بجديد في حقل الملاحظة والتجربة، لحق ما نسمع عنه من استقامة المحيط وحلزونية القطر ربما أفضى في نهاية المطاف إلى حدث مكاني أرجواني الملمس والاتجاه، تلك هي همسات التاريخ المقبل، شاخصة في مقابل إحياءات العلم، وهذا هو الحدس المضبوط الذي دفع المؤرخين والعلماء، إلى كلمة سواء، وقفت بهؤلاء وأولئك على مفترق الطرق...^(١) يرى الدكتور تمام حسان أن نحو الجملة لا يعترض على هذا الكلام، لأن كل جملة منه استوفت أركانها، ومكملاتها وحسن رصفها ولكنها تخلو من الإعلامية، ولا تنقل مضمونا محدداً، وبالتالي فهي -حسبه- لا نص.

ويعترض الدكتور سعد مصلوح على رأي الدكتور تمام حسان؛ إذ يرى أن الإعلامية تفترض مسبقاً أن للكلام محتوى، يجري إبلاغه للمتلقي بواسطة النص، وبالتالي فهي لا تعالج نصاً غير محبوب (غير متسق)^(٢) كما افترض ذلك د. تمام حسان، لأن الإعلامية تتعلق بكيفية استقبال الكلام على أنه نص ذو محتوى، وهذا يحكم عليه المتلقي.

و- علاقة المقام أو السياق (Contexte): أولى الدكتور تمام حسان عناية خاصة بالمقام؛ إذ يراه المركز الذي يدور حوله علم الدلالة الوصفي في العصر الحاضر، وهو الأساس الذي يبني عليه الشق أو الوجه الاجتماعي من الوجوه الثلاثة للمعنى، وهو الوجه الذي تتمثل فيه العلاقات والأحداث والظروف الاجتماعية، التي تسود ساعة أداء المقال^(٣)، ويعد السياق عنصراً مهماً في الدراسات اللغوية الحديثة؛ حيث كان محور اهتمام (لسانيات النص) وعلم اللغة بصفة عامة. ولعل اهتمام الدكتور تمام حسان بالسياق مرده إلى المدرسة الاجتماعية، ومدرسة فيرث بالتحديد باعتباره تتلمذ على يد هذا الأخير كما أشرنا سابقاً، ومن هنا أصبح لهذا المصطلح أهمية عند اللغويين، في مجال لسانيات النص خاصة، كأداة إجرائية تلعب دوراً مركزياً في تحديد المعنى؛ إذ يكاد يتفق معظم الدالين، على أن للكلمة

(١) د. تمام حسان، الأصول، ص ٢٨٨ - ٢٨٩.

(٢) د. سعد عبد العزيز مصلوح، في اللسانيات العربية المعاصرة، دراسات ومناقشات، ص ٢٣٣.

(٣) د. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص ٣٣٧.

معنى قاعدياً (Sens de base) ومعنى سياقياً (Sens Contextuelle) ومن هنا أضحى السياق ضرورياً، إذا أردنا الإمساك بالمعنى^(١) ولقد شهد مصطلح السياق مساراً أكثر بعداً في الدراسات التداولية، والتي عمق أصحابها مسألة السياق، اعتماداً على تجاوز السياق اللغوي المحض، إلى السياق الاجتماعي، والنفسي، والثقافي، وسنفصل في هذه القضية عند دراسة المنحى التداولي في آراء د. تمام حسان.

(١) د. علي آيت أوشان، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، ط ١، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء: ٢٠٠٠، ص ١٥.

الخاتمة

من خلال تتبعنا للآراء التي قدمها الدكتور تمام حسان، يبدو لنا أنه قد أولى جانبي الاتساق والانسجام (السبك والاتحام) في النص العربي أهمية كبيرة، محاولاً الوقوف على خصوصيته والذي يختلف دون شك عن بقية النصوص في اللغات الأخرى، ويتجلى ما قام به أنه حاول الكشف عن أشكال الربط في النص العربي، كما حاول الكشف عن العلاقات المعنوية في فضاء هذا النص بدقة متناهية، نلمح تعمقه في فهم العربي، وإحساسه بجماليتها، ورغم أنه أفاد بما وصلت إليه اللسانيات الغربية من إجراءات، إلا أنه اكتفى بما يناسب النص العربي وأضاف إليها أموراً استمدتها من خصوصية هذا النص، لتكون محاولته هذه قاعدة مهمة تفتح آفاقاً جديدة للدارسين العربي في مجال اللسانيات النصية.

قائمة المصادر والمراجع

أ- القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم.

ب- المعاجم العربية.

١. ابن منظور، لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، القاهرة، دار المعارف.

٢. الشريف الجرجاني، التعريفات، لبنان: ١٩٨٥، مكتبة لبنان.

٣. مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، ط ٤. القاهرة: ٢٠٠٤، مكتبة الشروق الدولية.

ج- المصادر والمراجع:

١. د. إلهام أبو غزالة، علي خليل حمد، مدخل إلى علم لغة النص، تطبيقات لنظرية روبرت دي بوجراند وولفجانج دريسلر، ط ٢. مصر: ١٩٩٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢. د. تمام حسان، اجتهادات لغوية، ط ١، القاهرة: ٢٠٠٧، عالم الكتب.

٣. د. تمام حسان، البيان في روائع القرآن (دراسة لغوية أسلوبية للنص القرآني)، ط ١، القاهرة: ١٩٩٣، عالم الكتب.

٤. د. تمام حسان، الخلاصة النحوية، ط ١، القاهرة: ٢٠٠٠، عالم الكتب للنشر والتوزيع والطباعة.

٥. د. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، د. ط. المغرب: ١٩٩٤، دار الثقافة.

٦. د. تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، ط ٤. القاهرة: ٢٠٠١، عالم الكتب.

٧. د. تمام حسان، مقالات في اللغة والأدب، ط ١. القاهرة: ٢٠٠٦، عالم الكتب، ج ١ و ج ٢.
٨. د. تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، دط، مصر: ١٩٨٩، مكتبة النسر للطباعة.
٩. د. سعد عبد العزيز مصلوح، في اللسانيات العربية المعاصرة دراسات وثقافات، ط ١. القاهرة: ٢٠٠٤، عالم الكتب.
١٠. د. سعيد حسن بحيري، علم لغة النص (المفاهيم والإجراءات) ط ١. القاهرة: ١٩٩٣، مكتبة الأنجلو المصرية.
١١. د. سعيد حسن بحيري، لونغمان، علم لغة النص (المفاهيم والاتجاهات)، ط ١، القاهرة: ١٩٩٧.
١٢. د. عبد الرحمن حسن العارف، تمام حسان رائداً لغوياً، ط ١. كتاب تذكاري، القاهرة: ٢٠٠٢، عالم الكتب.
١٣. د. عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، دط. تونس والجزائر: ١٩٨٦، الدار التونسية للنشر، والمؤسسة الوطنية للكتاب.
١٤. الشيخ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر، ط ٥. القاهرة: ٢٠٠٤، مكتبة الخانجي.
١٥. د. عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج، بيروت: ١٩٧٩، دار النهضة العربية للطباعة والنشر.
١٦. د. عطا محمد موسى، مناهج الدرس النحوي في العالم العربي، ط ١. الأردن: ٢٠٠٢، دار الإسراء للنشر والتوزيع.

١٧. د. علي آيت أوشان، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، ط ١. الدار البيضاء: ٢٠٠٠، مطبعة النجاح الجديدة.
١٨. د. علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، ط ٩. مصر: ٢٠٠٤، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
١٩. د. فؤاد حنا ترزي، في أصول اللغة والنحو مطبعة دار الكتب، بيروت: ١٩٦٩.
٢٠. د. فاضل صالح السامرائي، الجملة العربية والمعنى، ط ١. القاهرة: ٢٠٠٠، دار ابن حزم.
٢١. د. فاضل مصطفى الساقى، أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة، القاهرة، ١٩٧٧، مكتبة الخانجي.
٢٢. د. فاطمة الهاشمي بكوش، نشأة الدرس اللساني العربي الحديث دراسة في النشاط اللساني العربي، ط ١. مصر: ٢٠٠٤، أترك للطباعة والنشر والتوزيع.
٢٣. د. محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ط ١. الدار البيضاء: ١٩٩١ المركز الثقافي العربي.
٢٤. د. محمود أحمد نحلة، مدخل إلى دراسة الجملة العربي، بيروت: ١٩٨٨، دار النهضة العربية للطباعة والنشر.
٢٥. د. محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر.
٢٦. د. مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، ط ٢. بيروت: ١٩٨٦، دار الرائد العربي، ص ١٤٧.

الكتب المترجمة:

١. روبرت دي بوجراند وولفانغ دريسلر، مدخل إلى علم لغة النص، تر: إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، ط ١. القاهرة: ١٩٩٣، مطبعة دار الكتاب.
٢. روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، تر: تمام حسان، ط ٢. القاهرة: ٢٠٠٧، عالم الكتب.
٣. ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، تر: كمال بشر، ط ١٢. القاهرة: ١٩٩٧، دار غريب للطباعة والنشر.

المقالات:

١. تمام حسان، "نحو الجملة ونحو النص"، محاضرة أقيمت ضمن النشاط الثقافي لمعهد اللغة العربية بجامعة أم القرى ١٤١٤ هـ، مقال غير منشور.
٢. نعمان عبد الحميد بوقرة، "الكتابة اللسانية العربية من الرؤية الغربية إلى التأصيل الإسلامي للمنهج قراءة وصفية في صورة التلقي ونماذج الصياغة"، مجلة الدراسات اللغوية والأدبية، كلية الآداب، جامعة الملك سعود.